كتاب السيرة

للأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب

— ١ —

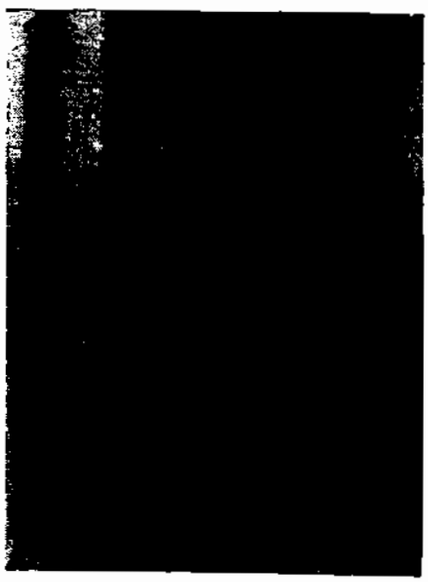

تحتل السيرة النبوية فى تاريخ الأدب العربى مكانة لم يظفر بها موضوع آخر ، لهذه المكانة التى يشغلها صاحبها فى تاريخ الأمة الإسلامية أولاً ، وفى التاريخ العام ثانياً ، فإن الرسول عليه السلام لم يكن أديباً فقط له هذه الآثار القوية الخالدة من الأحاديث والخطب والرسائل ، وإنما كان قبل ذلك وبعده ، رسولاً صاحب دعوة إصلاحية عامة تناولت الدين والنظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، وأثرت فى الحضارة العامة لمن اعتنقوها طائعين أو جانبوها كافرين ، واستطاعت أن تستوقف التاريخ أو تلوى عنانه لتملى عليه إرادتها ، وتلقى إليه وحيها ، فأخذ عنها ما أملت ، وكتب من فصوله صحفاً ملأى بالجهاد ، والفضائل ، والأدب ، والفن ، والسياسة ؛ ولا يزال الإسلام إلى اليوم — على الرغم مما أصاب بعض ذويه من هوان — مصدر الخير والسعادة ، وموئل البشرية حين تعوزها الهداية ، ومعهداً لدراسات خطيرة تلقى أمام رواد الحضارة المثالية ضوءاً يرجى أن يتم به على العالم ما يبغى من رشاد وسلام .

ولم تقف العناية بالسيرة عند العرب وحدهم ، أو المسلمين فقط ، وإنما تجاوزتهم إلى جماعة من كتاب الفرنجة الأعلام الذين رأوا فى نبى المسلمين رجلاً عظيماً من رجال التاريخ خليقا بالبحث فى أسباب عظمته ، وما أتيح له من هذا الفوز الذى استأثر بالسلطان المدنى والسياسى طوال القرون الوسطى ، إذ كان العالم الإسلامى يشغل التاريخ بأحداثه الكبرى ، ودوله المتعاقبة ، وآدابه الغزيرة حين كان الغرب يضطرب فى ظلمات كثيفة ، ويحيا حياة خاملة .

ولسنا هنا بعرض الاستيعاب ، واستقصاء هؤلاء الذين كتبوا عن الرسول قديماً وحديثاً من المسلمين وسواهم ، وحسبنا أن نلم بشىء من ذلك لنصل منه إلى جماعة من المعاصرين الذين تناولوا السيرة بأساليب مختلفة ، لها قيمتها العلمية والفنية جميعاً .

— ٢ —

منذ ألف ابن إسحاق سيرته التى اختصرها ابن هشام فى هذا الكتاب المنسوب إليه ، والناس بعدوها المرجع الأول لكل من يحاول تأريخ الرسول . وليس ذلك لأن جميع ما احتوته حق تاريخى خالص ، وموضع الثقة التى لا ينالها تجريح ، لا ، ولكن ذلك لأسبقيتها التاريخية فى التدوين ، ولما احتوته من حقائق ثابتة فى كثير من المواقف ، ولأنها روت أخبارها بهذه الروح التى كانت مسيطرة على المسلمين فى القرون الأولى ، أى بوجهة نظرهم ، وطريقة تفسيرهم لحوادثها ... فكانت الخطوة الأولى فى هذا السبيل عند المتقدمين ، ونقطة الابتداء لكل من يحاول تأريخ النبى الكريم من المحدثين ، يرجع إليها محققاً أو مستلهماً . دع عنك بعد ذلك ما تراه فيها من شعر منحول ، وروايات مكذوبة ، وأخبار لم تصح ، لأن وزر ذلك لا يقع على ابن إسحاق وحده ، وإنما لهذه البيئة التى كان يعيش فيها الأثر الأول فيما وقع فيه من قصور ، فقد كان يحكى أخباراً جاهلية بعيدة ، ويقص أياماً نالتها المبالغات والعصبيات ، وينقل آثاراً مات أهلها ، واعتراها التحريف . على أن ابن هشام لم يقيد جميع ما كان لابن إسحاق من جبر بل حذف منه كثيراً وبخاصة ما كان متصلاً بالجاهلية الأولى ، منفصلاً عما يتصل بحياة الرسول اتصالاً مباشراً كما هو مذكور فى المقدمة .

ثم جاء الواقدى وتلميذه ابن سعد فى طبقاته ، وحاولا التحقيق والزيادة ، فظفرا منهما بنصيب . وأصبح فن السيرة بعد

هؤلاء تقليداً من التقاليد يعمد إليه الكتاب تعبداً أو تأدباً كما فعل كتاب المقامات فى عصور التاريخ الأدبى المتوالية ، فكانت السيرة الحلبية ، والسيرة الشامية . ولم تخل كتب التاريخ العام — كالطبرى وابن الأثير — من تخصيص بعض أجزائها لسيرة الرسول إذ كانت تشغل وحدها فترة واسعة ، خصبة ، بعيدة الأثر فيما أعقبها من دول وأحداث .

وهذه المؤلفات القديمة لم تكن بالطبع خاضعة لهذه المناهج العلمية الحديثة ، فكانت مجموعة من أحاديث الرسول ، وأخبار الجاهلية وأساطير القدماء ، وأشعار الناحلين ومبالغات الراوين ، دون عناية بالنقد والتفسير أو التنسيق وحسن التأليف . ولكنها كانت مؤلفة بروح هذه العصور السابقة ، وبوجهة النظر التى كانت — فى الغالب — مقياس الصحابة والتابعين حين يذكرون الرسول الكريم ويفسرون أعماله وآثاره

أما كتاب الفرنجة فقد رأينا مستشرقيهم يتهافتون على هذا الموضوع ، ويسلكون فيه هذه المناهج العلمية التى قد تفيد من ناحية الشكل والنظام ، ولكنهم بعد ذلك كانوا فريقين : فريقا اتخذ السيرة مجالاً للتعصب على الإسلام فكان من المبشرين الخاطئين ، وفريقا حاول الإنصاف ووقف عند الأصول العلمية الجافة فقد هذه الروح أو الجو الذى كانت تجرى حوادث السيرة فى ظلاله ، فتعسر عليه تفسير أشياء كثيرة كان من السهل عليه إدراكها لو أنه كسب هذه الروح وعاش بخياله فى عصور النبوة الأولى . نذكر من آثار المستشرقين حياة محمد لإرفنج ، وأخرى لوليام موير ، وثالثة لمرجليوث ، ولا ينسى التاريخ هذا الفصل البديع الذى كتبه كارليل تحت عنوان (البطل فى صورة نبى) إذ دل على تفهم عام لهذه الروح التى كانت تشيع فى بلاد الرسالة قديماً

على أن الهنود لم يقصروا فى هذه الناحية فكتبوا باللغة الإنجليزية فى السيرة رأساً مثل النبى لمولانا محمد على ، وفيا يتصل بها مثل روح الإسلام لسيد أمير على ، ولغير الهنود فى مصر وفى العالم الإسلامى آثار فى السيرة لم تخل من فائدة

— ٣ —

ولكننا نختار من هؤلاء المعاصرين ثلاثة نقف عندهم وقفة قصيرة لا لشىء إلا لأنهم نهجوا فى كتابة السيرة مناهج طريفة من ناحية ، ومتغايرة من ناحية أخرى : محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم

يتفقون جميعاً فى العناية المحمودة بسيرة الرسول ، وجعلها فى العصر الحديث موضوعاً خليقاً بالدرس وبذل الجهود فى إذاعته بين الناس بأسلوب جديد يقربه إليهم ويحببه إلى نفوسهم ، وهذا وحده غرض نبيل يستحق التقدير . كذلك سلكوا مسالك واضحة ممتازة وإن كانت متغايرة ، ولكل مذهب محدود ذو معالم التزمها صاحبه ليس فيه هذا الاضطراب القديم الذى كان يجمع أشتاتاً من القصص ، والتقرير والوصف والرواية ونحوها ، وإنما هو مذهب علمى أو فنى متناسق الأجزاء ، منظم العناصر ، فيه فقه للأشياء وفهم لها بروح قديمة أو حديثة أو بهما جميعاً . ومع ذلك فهم مختلفون فى أشياء كثيرة

يمتاز هيكل بالمنهج العلمى الذى ترسمه فيما كتب ، فكان مذهبه مذهب العالم المحقق ، إذ قسم موضوعه إلى فصول متواصلة متلاحقة كما كانت حياة الرسول عليه السلام منتظمة فى هذه الفصول أو الأقسام التاريخية ، ولا أقول إن هذا المنهج كله من اختراعه فلقد سبق إليه ، ولكنه آثره وهذب منه ، وهذه الخطة نفسها اقتضت مؤلف — حياة محمد — أن يكون مستقصياً استقصاء الباحث فليس له اختيار ما يحب وترك ما لا يهوى ، لأنه يعالج موضوعاً من عمل التاريخ ، عليه أن يعرضه كما حدث دون أن يخلع عليه من نفسه إلا ما شاء الخيال التاريخى الذى يربط المفكك ، ويصل المنقطع ، ثم هذا النقد الذى يظهر فى تفسير كثير من المسائل بمقياس إسلامى علمى بعد ما كانت أشبه بالسمميات تصدق ولا تعلل ... وفى مناقشته آراء المستشرقين الذين تجافوا فيما كتبوا عن روح الدين وطبيعته ، وبعدوا عن عصر الرسالة وبيئتها فلم يوفقوا فيما يتصورون . وصاحب (حياة محمد) بعد ذلك مسلم حدب على الدين غيور ، أشرب روح الإسلام ، وألم بكثير من أسراره فظهرت على كتابه أعراض الحمية ، حمية من لا يسمح لأحد بغمز دينه أو النيل منه ، وذلك كله فى أسلوب منطق واضح هو أسلوب العلماء . ولكن طه حسين سلك سبيلاً أخرى هى سبيل الأديب حقاً ، فلم يشأ فى الظاهر أن يتقيد بمنهج علمى ، وإنما كان قصاصاً ، ترك هذا العصر الذى نعيش فيه ، وانتقل بخياله الخصب إلى الجاهلية وصدر الإسلام وعاش مع ناسها يفهم بعقولهم ، ويحس إحساسهم ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون ؛ وبذلك استطاع — ما وسعه الجهد — أن يقص علينا الحوادث بروحها وفى جوهرها ، وأن يفسر المسائل كما كانت

تفسر حينذاك ، فنقل إلينا هذا الماضي أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة . وفن القصص لا يقتضي صاحبه استقصاء ولا نقداً علمياً دائماً ، ولا تحقيقاً وتفنيداً ، فآثر أهم الأمور التي يرى فيها روعة قصصية لأنها كانت رائعة إبان حدوثها أو فيما شعر وتخيل صاحب « على هامش السيرة » ... ثم تناولها واصفاً وحاكياً لم يترك جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما فات الرواة . وليس من شك في أن ذلك قد عرض بأسلوب جميل هو أسلوب القصص الممتاز الجامع بين التحليل النفسي للأشخاص ، والإحاطة التامة بما يعرض له من مواقف

أما توفيق الحكيم ، فقد توسط الاثنين ، وجمع بين ميزتي العالم والأديب الممثل ، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس . استشار المراجع القديمة ، ووقف عند ما رسمت دون أن يستعين الخيال إلا قليلاً ؛ وقد ألم بأطراف موضوعه ، وقسمه فأحسن التقسيم ، ثم اختار قضاياه وصفاها وجعلها معالم واضحة خالصة من براهين التحقيق العلمي ، وإسهاب الفن القصصي ، فصارت قضايا موجزة بالغة حاسمة ، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحواري أو التمثيلي كما كان يتحدث الرسول وصحابته والمتصلون بسيرته قديماً إلا ما لم يرد فيه نص . وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذراً محتاطاً لم يمس الموضوع إلا بخفة وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره

كان هؤلاء الكتاب ، إذا ، بين عالم محقق ، وأديب قاص ، وفني ممثل ، كل أخلص لمنهجه ، ووصل منه إلى غاية بعيدة

وتستطيع أن تتبين هذا الفرق في أسطر قليلة جداً ، فيما كتب عن أول ما عمل محمد عليه السلام في تجارة خديجة ؛ فهيكل يقرر المسألة ويقول إن أبا طالب كان السفير بين ابن أخيه وبين خديجة ؛ وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد وإرسالها دسيساً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه في تجارتها بأجر مضاعف ؛ فيأتي توفيق الحكيم ، فيقتضب المسألة ، ويترك الباب مفتوحاً للخيال .

والمرجو ألا يقف العلماء عند ما كتب هيكل ، وكفى ، وأن يتم طه حسين : « على هامش سيرته » ... وأن يجيبنا العلماء : هل تمثل سيرة الرسول على المسرح ثم ترسم على الشاشة البيضاء ؟

« رمل الاسكندرية »

أحمد الشايب

حالة العرب الاجتماعية

في عصر الدولة الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

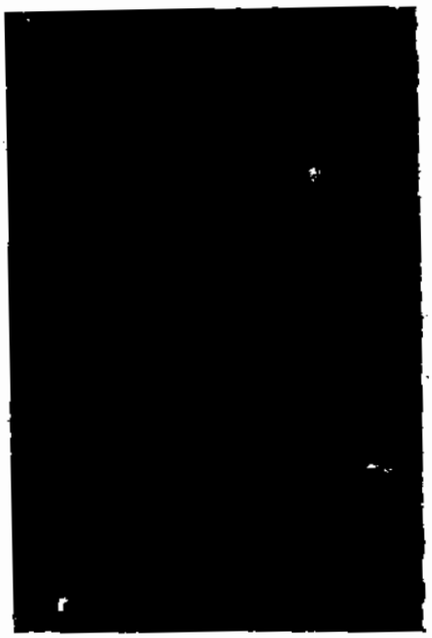

كان لاختلاط العرب والروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة في عهد الأمويين فقد تأثر معاوية بن أبي سفيان بنظم الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد ، فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ووضع المقصورة التي يصلي الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس وذلك لخوفه مما جرى لعلي رضي الله عنه

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون وبعض خلفاء بني أمية. وكان الخليفة في العهد الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة وبيده الخاتم والعصا ، وهما شارتا الملك

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم ، وكان الخليفة يجلس في صالة الاستقبال الكبرى وعلى يمينه أمراء البيت المالك وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط ثم يمثل بين يديه رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم